الفصل الخامس

العبـــادة

من بعض تعاريفها: هي طاعة لله طوعية مبنية على معرفة يقينية تفضي إلى سعادة أبدية (الآخرة).

ـ هي طاعة الله تعالى بامتثال أمره على نحو ما جاءت به السنة على ألسنة الرسل، وأصل العبادة التذلل والخضوع، وسميت وظائف الشرع عبادة؛ لأن فعلها يتم بالخضوع لله تعالى مع التذلل له والالتزام.

ـ وهي الغاية التي خلق لأجلها الجن والإنس ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، ودعوة الرسل جميعاً كانت لأجل العبادة ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ..﴾ [الأعراف: ٥٩].

ـ وهي تعني الدعاء لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]، كما تعني الإخبار والمسألة لقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]، كما تعني كمال التعظيم لله؛ لأنها تشمل التذلل، وتتضمن الحب الذي يشمل الحمد.

ـ وهي تشمل التوكل؛ لأنها قصد ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

فالله تعالى أمرنا بالعبادة عن طريق الكتاب المنزل على رسوله ﷺ وعلى الناس أن يفعلوا ما أمروا به ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، فالظالم

لنفسه هو الذي خلط مع العبادة أعمالاً سيئة ، فهذا متروك لمشيئة ربه إن شاء غفر له وإن شاء عذبه.

وأما المقتصد: فهو الذي قام بما أوجب الله وترك ما حرم الله تعالى.

وأما السابق بالخيرات (الأبرار): فهو الذي وصل إلى كمال الإيمان وله سعة في معرفة الله وسبق في أعمال الطاعات والقربات علماً وعملاً.

ـ فأصل العبادة محبة الله تعالى وإفراده بالمحبة فلا يحب سواه وإنما لأجله وفيه ، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وعباده الصالحين (أولياءه) إذ محبتهم من تمام محبة الله تعالى وليست محبة معه ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ . . ﴾

[البقرة: ١٦٥].

وإذا كانت حقيقة العبادة لله تعالى محبته فهي تتحقق باتباع أمره واجتناب نواهيه ، فالثواب والعقاب مترتبان على الأمر والنهي ، ومتى كان عند العبد شيء أحب إليه من الله تعالى فهو الشرك ، والأعمال أسباب موصلة للثواب والعقاب وهي مقتضيات كسائر الأسباب لمسبباتها ، والأعمال الصالحة هي من توفيق الله تعالى وفضله ومِنَّةٌ منه وصدقة منه على عباده؛ أن أعانهم عليها ووفقهم لها وخلق فيهم الإرادة لها والقدرة على أدائها وكره لهم ضدها. ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ . . ﴾

[الحجرات: ٧].

وهذه العبادة ليست ثمناً من العبد لله تعالى لمجازاته على نعمه بل غايتها إذا بذل فيها العبد نصحه وجهده وأوقعها على أكمل وجه أن تقع شكراً لله على بعض نعمه ، إذ لو طالبه بحقه لبقيت عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقم بشكرها لذا لو عذب أهل سماواته وأهل أراضيه لعذبهم وهو غير ظالم لهم؛ لقوله عليه السلام: «لن يدخل الجنة أحد

بعمله ، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته».

فمن تمام الفرح والغبطة اغتباط العبيد بمِنَّة سيدهم وطيب العيش بهذه المِنَّة ، وأقربهم إليه تعالى أعرفهم بهذه المِنَّة وأكثرهم إقراراً بها وشكراً عليها ومحبتهم له لأجلها ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ [الحجرات: ١٧]. فالمِنَّة لله على نعمه ومنها نعمة الهداية ، والمِنَّة للرسول ﷺ على نعمة البيان والدعوة. وليس لمخلوق مِنَّة لأن مِنَّته نقص؛ لأنه لا يملك شيئاً من العون وغيره.

ـ مظاهر العبادة:

ـ بالقلب: اعتقاداً جازماً (عقيدة) شهود أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

ـ بالأعمال: الفرائض من صلاة وصوم وزكاة وحج وجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ـ بالنوافل: «ما تقرب مني عبدي بأفضل مما افترضته عليه» (من جنس الفرائض).

ـ بالأقوال: من تلاوة القرآن وما شرع من الأدعية والأذكار والتسبيح والجهد والتهليل والتكبير.

ـ بأنواع القربات: وفي الحديث: «ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾» [السجدة: ١٦].

ـ «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه: رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد».

ـ «ألا أخبرك بمِلاك ذلك كله: كُفَّ عنك هذا» (لسانك).

وفضل تلاوة القرآن ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ . . ﴾ [فاطر: ٢٩] وأهل

القرآن أهل الله وخاصته ، والصلاة على النبي ﷺ وعن أُبيِّ بن كعب: يا رسول الله ، ما أجعل لك من صلاتي (أي من دعائي من الصلاة عليك)..؟ قال: «ما شئت». قلت: الربع؟ قال:«إن شئت وإن زدت أحسن». قال: الثلث ثم النصف ثم الثلثين ثم ثلاثة أرباعها ، حتى قال: كلها ، والرسول ﷺ يقول: «ما شئت وإن زدت أحسن» ، فلما قال: كلها ، قال ﷺ: «إذاً تُكْفَىَ همك ويُغفر ذنبك».

ـ بالأذكار: (السنة تبين أعداداً في صيغة الذكر) وأن تموت ولسانك رطب بذكر الله.

ـ بالتقرب بنوافل الصدقات: إغاثة ملهوف وإطعام جائع وكسوة عريان وإنقاذ مبتلى.

ـ بالعمل بمكارم الأخلاق: من تواضع وصبر وإدخال السرور على أخيك المسلم أو قضاء الدَّيْن عنه والمشي في حاجة الأخ المسلم وتعليم العلم النافع (الذي يحمل على خشية من الله).

إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحيتان في الماء والطير في السماء ليُصَلُّون على معلم الناس الخير حتى إنه قيل: مما تعني به ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

ـ بالتقرب إلى الله: بالصدق والأمانة بالتجارة وطلب الرزق الحلال وبنية خالصة.

ـ القواعد التي تدور حولها العبادة:

فهي تتطلب الاستعانة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٤] ، فكل عابد مستعين وليس كل مستعين عابد ، فصاحب الأغراض قد يستعين على شهواته ، والاستعانة توفيق من الله تعالى على العبادة.

ـ فنستعين على عبادتك بما شرعت ، وهي تتعلق بالمشيئة الإلهية ومحبة الله تعالى ورضاه (وهذا معنى قول: لا حول ولا قوة إلا بالله) فلا تحوّل من معصيته إلى طاعته إلا به تعالى.

و(العبادة) محاطة بإعانتين:

أ ـ قبل التزامها والقيام بها.

ب ـ بعد العبادة على عبودية أخرى وهي الشكر.

ـ وتشمل العبادة:

أـ النيـة: التي تميزها عن العادة وتكسبها الأجر وتجعلها طاعة.

ب ـ الصدق: وهو توحيد الطلب (صادقاً في طلبه لمحبة الله تعالى ورضائه)، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

جـ ـ الإخلاص: فلا يكون مع المطلوب غيره أو منقسماً أو غير مفرد ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١]..

د ـ النصح: قيام العبادة على الوجه الصحيح المحبوب للرب حسب ما علمنا رسول الله ﷺ (السنة).

هـ ـ أن يكون القلب قائماً بالعبودية مع جميع الجوارح والأعضاء ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

ـ ويحظر على العابد: الكبر، والغفلة، والعجب، والحسد، والنفاق (الكبائر)، أو شهوة الصغائر وتمنيها، فإذا تركها مع القدرة على إتيانها أثيب، وإن تركها عجزاً فعليه توبة.

وكما أن طاعة الله ورسوله ﷺ عبادة، كذلك طاعة أولي الأمر (أمير المؤمنين) بغياب الرسول؛ ﷺ (لأنها من طاعة الله ورسوله ﷺ) وهذه الطاعة تكون في معروف؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ـ فرسول الله ﷺ عبد ولا يفعل إلا ما يأمره به ربه، فكل فعْلِه عبادة، فإذا بدأ فباسم الله والثناء عليه، وإذا طلب فبما يرضي الله، وإذا أخطأ فيقول: «ربّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

ـ الذنوب:

هي سبب الضر الذي لا يكشفه إلا الله ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ

لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧] ، والاستغفار يزيله ويزيل سببه ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] ، فالله تعالى لا يعذب مستغفراً.

فالعبادة تفتح باب الخير ، والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر ، والذنوب تنافي الكمال إذا كانت استمراراً وإصراراً ، أما إذا كانت طارئة وجرى الاستغفار منها فهذا هو الكمال؛ لأن التوبة ترفع العبد إلى مقام أعلى ، لذا يبتلى خيار الخلق. والخوف من المعصية خوف الصالحين والخوف من الله خوف الصدّيقين والموحّدين.

ـ أقسام أهل العبادة بحسب عبادتهم:

أ ـ أهل العبادة والاستعانة بالله: هؤلاء مرادهم عبادة الله ، وطلبهم توفيقه لهم؛ ليقوموا بها كما يحب (اللهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ولا تجعلني من الغافلين).

ب ـ المعرضون عن العبادة والاستعانة: وهؤلاء شر الخلق كإبليس ، فإذا سأل أحدهم حاجته أو استعان فعلى حظوظه من دنياه ، فإذا حصل عليها وتمتَّع بها لم تكن عوناً على مرضات الله تعالى بل لزيادة شقوته ، كما سأل إبليس ربه ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤].

فإعطاء العبد حاجته من الله (إذا طلبها) ليس لكرامته على الله بل قد تكون من هوانه عليه أو استدراجاً له. والعاقل إذا سأل ربه حاجة ومنعه منها فلا يظن بجهله أن الله لا يحبه أو عدم كرامته على الله ، وإذا رأى أنه يجيب غيره لما طلب فلا يسيء الظن بربه.

والجاهل خصم أقدار ربه ، فالعطاء والمنع ابتلاء وإن الإكرام والإهانة لا يدوران على حظوظ الدنيا من مال أو جاه. إلخ ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا . .﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٦] ، وإنما يكرم الله من يكرمه بمحبته ومعرفته وطاعته ، ويهين من يهينه بالإعراض عنه وتقلبه في معصيته ، فالله تعالى

يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه من خلقه.

جـ ـ من لهم عبادة دون الاستعانة ، وهؤلاء قسمان:

ـ قسم يقول: إن الخالق قد جعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف وإنه لم يبق بمقدوره إعانته على الفعل؛ لأنه أعانه بخلق الآلات وسلامتها وعرَّفه بالطريق ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] عن طريق إرسال الرسل وتمكينه من الفعل ، أي ساوى ربنا بين أوليائه وأعدائه بالمعونة ، فأولياؤه اختاروا لأنفسهم الإيمان ، وأعداؤه اختاروا الكفر والضلال دون معونة للأولياء من الله ، ودون خذلان لأولئك يوجب لهم الكفر،فالجميع موكول لنفسه مغلق عليه طريق الاستعانة والتوحيد ، وهذا عين الخطأ لأن من دعاء الرسول عليه السلام: «ولا تَكِلْنا لأنفسنا طرفة عين».

ـ أما القسم الآخر من هذه الطائفة التي لها عبادة دون الاستعانة ، من لهم عبادات وطاعات ولكن نصيبهم من التوكل قليل ، فلم تتسع قلوبهم لربط الأسباب بالقدر ولا تمشيها ضمنه وقيامها به ، فلم تنفذ بصائرهم من المتحرك إلى المحرك. فلم يذوقوا طعم التعبد بالتوكل والاستعانة ولكن وجدوا راحتهم بالأوراد ، جاء في الحديث: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله تعالى رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً ونبيّاً».

ـ فالتوكل اطمئنان القلب ويكون عن معرفة الله تعالى وأنه منفرد بالخلق والتدبير (ألا له الخلق والأمر والضر والنفع والمنع والعطاء وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن) بما يشبه وضع الطفل مع أبويه إذ همه الالتفات لهما لما يناله منهما من رغبة ورهبة.

ـ وقسم آخر شهد تفرد الله تعالى بالنفع والضر وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لكنه لا يدري ما يحب الله ويرضى ، فتوكل على حظوظه وشهواته وطلبها منه وأنزلها به فقضيت.

ـ **أهل الإخلاص وأهل المتابعة:** ويضم أصنافاً أربعة:

١ ـ أهل الإخلاص والمتابعة (للسنة) وهم الذين جعلوا أقوالهم وأعمالهم وعطاؤهم وحبهم وبغضهم في الله وتعاملهم ـ ظاهراً وباطناً ـ لوجه الله وحده وليس لأحد غيره.

٢ ـ من لا إخلاص لهم ولا متابعة (للسنة) فلا العمل موافق للشرع ولا النية خالصة للمعبود، كالمرائي والمتزين للناس، فالعمل بما لم يشرع به الله تعالى، وهم أشرُّ الناس.

٣ ـ من كان عمله مخلصاً لله تعالى (نيته حسنة) ولكن العمل ليس حسب ما جاءت به السنة كجهال العباد قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ..﴾ [الحديد: ٢٧]، وأهل البدع.

٤ ـ من له متابعة (حسب السنة) ولكن ليست بإخلاص (نيته ليست لله تعالى) غايته الدنيا، كالذي يقاتل رياء أو حمية، أو كالذي يحج ليقال عنه: حاج، ويقرأ القرآن ليقال عنه: قارئ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

ـ **مراتب العبادة:**

١ ـ مرتبة الإحسان.

٢ ـ مرتبة أهل أداء الواجبات وترك المحرمات مع فعل المباحات وقد تلوث ببعض المكروهات مع ترك شيء من المستحبات.

٣ ـ السابقون المقربون (أهل القيام بالواجبات والمندوبات وترك المحرمات والمكروهات) والذين انقلبت المباحات في حقهم إلى عبادات (بالنية) وقربات بعزم القلب في حسن تلقي نعم الله وآلائه، حيث ينمي عطاء ربهم فيهم ملَكة الخير وزيادة العنصر الإنساني الذي يسمو بهم في معارج الإحسان والخير.

ـ ولا تنتهي العبودية إلا بالموت ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩].

ـ وهناك عبودية أخرى عندما ينقطع التكليف يسجد فيها المؤمنون وتصبح عبوديتهم تسبيحاً بالأنفاس حيث لا يستطيع الكفار ذلك ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [القلم: ٤٢].

* * *

اجتهـاد أهـل العبـادة

١ ـ هناك من أخذ من العبادة أشقَّها على النفس (أبعدها عن هواه).

٢ ـ وهناك من اعتبر العبادة تجرداً وزهداً في الدنيا ، وهؤلاء قسمان:

الأول ـ العوام الذين اعتبروا أن الزهد هو الغاية كجهال العباد ، هؤلاء أساؤوا لأنفسهم وأساؤوا للدين فأظهروه على غير حقيقته.

الثاني ـ الخواص الذين رأوا الزهد وسيلة لتفريغ القلب لمحبة الله والإنابة إليه والتوكل عليه والاشتغال برضائه ، فاعتبروا أفضل شيء هو جمع القلب على الله ودوام ذكره.

٣ ـ وهناك من رأى أفضل العبادة ما فيه نفع متعدد فرأوه أفضل من النفع القاصر (خدمة الفقراء والمحتاجين ، قضاء حوائج الناس ، العلم ، الدعوة ، الجهاد...) فتصدوا له تصديقاً لما جاء بالأثر: «الخلق عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله».

٤ ـ وهناك من رأى أفضل العبادة مرضاة الرب في كل مناسبة وحين بما يناسب الحال ، فالجهاد في وقته ، وإكرام الضيف في حينه ، والتبتل في السحر ، والقيام وقت استرشاد الطالب وتعليمه ، وإجابة المؤذن حين السماع... ، وهؤلاء يسمون أهل التعبد المطلق ، بينما غيرهم أهل التعبد المقيّد.

ـ فالعمل على مراد الله وليس على مراد النفس والهوى ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

ـ يأنس بهذه العبادة كل محبّ ويستوحش منها كل مبطل.

ـ فالعبادة الصحيحة هي العمل بمرضاة الله تعالى في كل وقت.

ـ فعند الجهاد: يجب القيام به.

ـ وعند حضور الضيف: يجب القيام بحقه.

ـ وأداء حق الزوجة والأهل والأولاد.

ـ وعند رؤية المحتاج: يجب المساعدة باليد والجاه والمال وإغاثة لهفته.

ـ وعند قراءة القرآن: يجب جمع القلب عليه وتدبّر معانيه وتفهمه والعزم على تنفيذ ما جاء به.

ـ وعند الوقوف بعرفة: يجب الاجتهاد بالتضرع والذكر.

ـ وفي عشر ذي الحجة: الإكثار من التعبد والتصدق (أفضل من الجهاد غير المتعين).

ـ وفي العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد والاعتكاف والخلوة وترك مخالطة الناس.

ـ وعند مرض الأخ المسلم: عيادته وتقديم العون والأنس.

ـ وعند وفاة الأخ المسلم: حضور جنازته والصلاة عليه وتشييعه ، وفي المقبرة الاستغفار له وطلب التثبيت له والدعاء له.

ـ وعند نزول النوازل وإيذاء الناس: أداء واجب الصبر والمصابرة والمعونة ومخالطة الناس.

ـ ومخالطة الناس في الخير خير من اعتزالهم ، واعتزالهم في الشر خير من مخالطتهم.

* * *

حكمــة العبــادة

يتفاوت الناس في النظر إلى حكمة العبادة:

١ ـ فمنهم من أنكر تعليلاً للعبادة أو حكمة لها ، بل اعتبر أن الأمر محض مشيئة فقط لمجرد الأمر والنهي ، فلا حكمة ولا غاية ، وإن ما نراه من الحرق سببه العادة الاقترانية وكذلك الإرواء ، ولا حلاوة للعبادة ولا طعم.

٢ ـ قسم أنكر محبة العبد لربه ، وإنما محبة الثواب فقط ، ومنهم من جوَّز أن يعذب الله من أفنى عمره في طاعته بسبب محض المشيئة ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

٣ ـ وقسم يقول: إن العبادات ثمن لما يحصل عليه من الثواب بمثابة الأجر ، أي إنهم أوجبوا على الله تعالى رعاية الأصلح.

ـ ولا بد من عبادة الله تعالى والاستعانة على عبادته بكسب الحلال فالله يحب عبداً مطيعاً آكلاً من حلاله يعمل ويأكل ، ويبغض الذي يأكل ولا يعمل ، ويحب الذي يأكل بكسبه ويبغض الذي يأكل بنفاقه.

ـ والتقرب إلى الله تعالى يكون بما شرع الله لعباده ، جاء في الأثر: «وما تقرب إليّ عبدي بأفضل مما افترضته عليه». وليس لأي عمل قيمة شرعية إلا بعد أداء الفريضة ، وأداء الفريضة في وقتها أفضل من أداء ألف نفل دونها ولو بنية خالصة قال رسول الله ﷺ: «أفضل الأعمال الصلاة على وقتها».

ـ وتزكية النفس بما أوجبته السنة ، وكل عمل وفق الشريعة هو من

الذكر؛ لأن الذكر هو إزالة الغفلة ، فيلزم مراعاة الأوامر والنواهي الشرعية في جميع الأحوال ، أي العمل بطريق الإحاطة وعلى السنة ، فالذي أمر بالحج أمر بالطهارة فيراعى الأمران بنفس المستوى. فليس هناك عبادة مرحلية أولية ثانية بعيدة إنما الجميع لرضا الله تعالى وتنفيذ أمره واجتناب نواهيه. وما سكت عنه الدين بالكتاب والسنة ليس من المستحسن التنطع له.

يقول عليه السلام: «ليس شيء يقربكم من الجنة إلا بيَّنته لكم ولا شيء يباعد عن النار إلا ذكرته». فلا يجوز إدخال شيء على بيان رسول الله ﷺ أو حذفه.

فالذي لا يفيد لا يجوز الاشتغال به ، وقد قال تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩] ، فلم يذكر إلا وجهها الشرعي وترك البحث في الأمور الأخرى المتروكة للبحث والاكتشاف العلمي: لتكون لهم آية ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

جاء في الأثر: «تجيء الأعمال يوم القيامة ، فتجيء الصلاة فتقول: يا رب أنا الصلاة ، فيقول: إنك على خير ، وتجيء الصدقة فتقول: يا رب أنا الصدقة ، فيقول: إنك على خير ، ثم يجيء الصيام فيقول: يا رب أنا الصيام ، فيقول: إنك على خير ، ثم تجيء الأعمال كل ذلك يقول الله تعالى: إنك على خير ، ثم يجيء الإسلام فيقول: يا رب أنت السلام وأنا الإسلام ، فيقول الله تعالى: إنك على خير اليوم آخذ بك وأعطي». قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥]. فلا عبادة إلا حسب ما جاء به الإسلام وإلا بعد الإسلام.

ـ من لزم الاستغفار جعل الله له من كل همّ فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب ، جاء في الأثر: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله تعالى يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب ولا يعطي الدين إلا لمن أحبه ، فمن أعطاه الدين فقد أحبه ،

والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولا يسلم قلبه حتى يسلم لسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه» ، قلنا: فما بوائقه يا رسول الله؟ قال ﷺ: «غشه وظلمه ، لا يكسب عبد مالاً حراماً فينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتصدق به فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار ، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكن يمحو السيئ بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث».

ـ إن رسول الله ﷺ كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد: «اللهم ألّف بين قلوبنا وأصلح ذات بيننا واهدنا سبل السلام ونجنا من الظلمات إلى النور ، وجنِّبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم واجعلنا شاكرين لنعمك مثنين عليها وأتمَّها علينا».

والخارجون عن الإسلام هم الذين امتنعوا عن أداء العبادات المفروضة أو قسم منها (الصلاة ، أو الصوم ، أو الزكاة) أو عن الالتزام بتحريم الدماء أو الأموال أو الخمر أو الميسر أو جهاد الكفار ، أو غير ذلك من الالتزام بقواعد الدين وعباداته ونواهيه والتي لا عذر لأحد بجحودها أو تركها. فإذا امتنعت طائفة عن ذلك تُقاتَل وإن كانت مُقِرَّةً بها فهذا هو الكفر.

والكفر قسمان:

ـ عام: وهو جحود ما أنزل الله على رسله وما بلَّغت به الرسل.

ـ مقيد: وهو جحود أحد الفروض التي جاء بها الإسلام.

ـ وأخيراً هناك من علَّل العبادة بأن فائدتها رياضة النفوس واستعدادها لفيض العلوم ، كالفلاسفة الملحدين وبعض الإشراقيين الذين ساروا على نهجهم.

ـ وإن العابد الحق هو من عرف سر العبادة وغايتها وحكمتها من صفات الرب تعالى ، وعرف معنى الألوهية وأنها لا تنبغي إلا للرب تعالى ولا تستقيم معرفة حكمة العبادة إلا بمعرفة حقيقة الألوهية.